جارياً مجراه والكشف عن الموتى باق على حاله حتى اذا لم ينتبه الى الاصابة في حياة المصاب لم يدفن بعد وفاته الاَّ بالاحتياط اللازم . وستدوم هذه الاحتياطات مدة شهرين آخرين على الاقل ثم تنقص شيئاً فشيئاً اذا لم تحدث اصابات جديدة

ولم نلقَ صعوبة تذكر في اجراء الاحتياطات في الاسكندرية مع ان كثيراً منها كان يظهر للناس مقلقاً في زمن لم يكونوا يدركون فيه اخطار الاحوال التي هم فيها لانهُ لم يكن يصب غير واحد او اثنين يومياً في مدينة اهلها ٣٨٠٠٠٠ نفس . وقد ساعدت قنصليات الاسكندرية رجال الصحة بكل ما في طاقتها ولا سيما وكيل دولة اليونان الذين امنيب عدد عظيم منهم بالنسبة الى غيرهم فانهُ اهتم بالاحتياطات الصحية اهتماماً خصوصياً وابدى مزيد الغيرة في انجاح مساعي رجال الصحة

ولم يصب احد بالطاعون خارج الاسكندرية الا اثنين في بندر دمنهور على بعد ٤٠ ميلاً من الاسكندرية احدهما يوناني مستخدم في دكان بدال فيها وكان صاحب الدكان قد اشترى بضاعة من مخزن في الاسكندرية حدثت بعض الاصابات فيهِ والآخر حمال وطني في محطة سكة الحديد وكان ينقل البضاعة من عربيات سكة الحديد الى مخازنها . وجعلت بنادر القطر كلها تحت المراقبة لكشف كل اصابة مشتبهة فبلغ مصلحة الصحة خبر اصابات عديدة منها ولكن ثبت من الفحص البكتريولوجي انها كانت كلها بغير الطاعون

القاهرة في ٣٠ يناير ١٩٠٠ ه . ه . بشنج مدير عموم مصلحة الصحة

الذكاء والجنون

لحضرة الدكتور نقولا قياض

تختلف القوى العقلية باختلاف الناس وهي في الانسان الواحد مقرٌ تفاوت عظيم فتضعف قوة منها بقوى اخرى وقلما اتفق لواحد ان تساوى قواهُ كلها في النماء ولهذا تفاوتت مراتب العقل البشري وكان لهُ حالات وصور يصعب تحديدها فلا يعرف اين يبتدىء الذكاء ولا أين ينتهي . وما هذا الرأي بحديث النشأة بل قامت عليهِ الادلة منذ القدم وكان لهُ زعماء العهد ارسطوطاليس . وطالما سمعنا ورأينا ان الذكاء مهما بلغ من انسان لم يعصمهُ من الخلل في بعض قواهُ العقلية . وقد قرأنا الآن لبعض علماء العصر بحثاً جديداً في هذا الموضوع يؤيد ان الذكاء الشديد والجنون حلقتان من حلقات السلسلة التي تؤلف حالات العقل البشري وهما في

طرفيها بحيث لا يستحيل ان تلتقيا وتلتصقا فيتصل الذكاء بالجنون . ولا يراد بهذا القول ان من كان نابغة في قومهِ كان مجنوناً بل المراد ان بين الحالتين نسبة من حيث خروجهما عن الحالة المألوفة ودخولهما في تبة النادر الشاذ فالنابغة والمجنون بعيدان من الحالة البشرية العامة الاول لانهُ فوقها والثاني لانهُ دونها

وقبل الذهاب في الموضوع نرى من الواجب تعريف النابغة وشرح المراد من اللفظة لاضطرارنا الى الاكثار من استعمالها في كلامنا هذا فالنابغة ترجمة جني Génie بالفرنسوية وقد اختلف البعض في ترجمتها لان اللفظة الفرنسوية تطلق على معانٍ كثيرة اما نحن فاخترنا كلمة نابغة لانها تصيب غرضنا في هذا الموضوع اذ لا نقصد ان نتكلم عن الروح ولا عن الآلهة او غير ذلك من مفاد اللفظة الفرنسوية بل عن الرجل البالغ من الذكاء اشدهُ . والنابغة يختلف عن غيرهِ من الاذكياء كما يختلف الذكي عن الخامد الذهن ولكن بين الواحد منهم والآخر حالات متوسطة يصعب معها وضع حدٍّ فاصل . غير ان ذلك لا يمنعنا عن معرفة النوابغ . ومهما يكن من الارتباط بين اصحاب الذكاء فالتمييز بينهم غير مستحيل وهكذا يمكننا ان نعدّ بين النوابغ من كان في طبقة دانتي وشكسبير وكورنيل وهيكو وغاتي من الشعراء . وباسكال ونيوتون وفولتر وابي العلاء من الفلاسفة واصحاب الافكار . وليوناردي دي ڤنسي ورفائيل من المصورين . ونابوليون من قواد الحروب وساسة الشعوب

ولا ريب في ان ما امتاز بهِ هؤلاء العظام ورفعهم فوق مرتبة اقوامهم هو مخالفتهم كل من عاصرهم في الفكر والرأي وقيامهم باعمال لم يُقدم عليها سواهم فهم مستقلون في افكارهم يقودون غيرهم الى الاعمال ولا يقتادهم اليها احد . فالنابغة اذاً من كان غريب الاطوار فكراً وعملاً بعيد مطارح النظر تخرق اشعة ذكائهِ ما اظلم حول عقول معاصريهِ ويفتح ما اغلق عليها . خذ رسّاماً بارعاً في الرسم مدققاً في صناعتهِ كل التدقيق اذا رسم لم يترك مأخذاً للطاعن ولا معلقاً لعائب ولكنهُ لا يعرف التفنن والخروج عن الطريق المألوفة من اخوانهِ في الصناعة فلك ان تسمي هذا الرسّام عالماً في صناعتهِ وتعجب بمهارتهِ ودقتهِ ولكن لا يسعك ان تقول انهُ نابغة . انظر الى الكتبة والمنشئين فانك تجد من هم في الطبقة الاولى من العلم بقواعد اللغة وتراكيبها حتى حق ان نسميهم علماء ولكن قلما تجد من يحق ان يسمى نابغة وقس على ذلك المصورين والنقاشين

قال احد العلماء ان الجديد يحصل بالتقريب بين صور متباعدة قابلة التقارب فالنابغة من ظهر لبصيرتهِ هذا التقارب الذي تغلق عنهُ مدارك غيرهِ من الناس وبهذا يعزى الى الغرابة ويخرج عن الطور الطبيعي

كذلك المجانين فالغرابة في الافكار كثيرة عندهم وافكارهم تندفع فجأة كالسهام فلا تفقه لها كنهاً ولكن يستشف منها احياناً شيء من الذكاء الشديد وكم اطلع المارستان اختراعات مدهشة كان ينقصها شيء زهيد لتعد من آثار النابغين

وخروج النابغة عن الطور الطبيعي يدل على انهُ لا يملك الصحة الكاملة في عقله وانهُ معتل فسيولوجياً وبيكولوجيا ألا ترى ان من كان من النابغين فهو مصاب اكثر الاحيان بما يسميه الاطباء بالهذيان الديني او هذيان الاضطهاد او الكبرياء واذا استقصيت الخبر وجدت اكثر النوابغ سلالة قوم كثر فيهم الجنون او التقهقر في النمو وهم اذا تزوجوا جاء نسلهم عقيماً او لم يكن لهم نسل

والنابغة من يمكنهُ ان يفعل اكثر مما يفعل سواهُ واحسن مما يفعل سواهُ وطريقتهُ في العمل مخالفة لطريقة غيره فهو نادر شاذ . والطبيعة لا تحب الشاذ ولا ترضى الإبقاء عليه وجل همها المساواة بين افراد هذا الموجود فهي اذاً ديمقراطية المبدإ ولهذا لا ترضى بوجود النوابغ فتجتهد ان تدخلهم في مصاف غيرهم . واذا تتبعنا حياة النوابغ وطالعنا سيرهم نجد في معاملتهم العقلية والبيشية والاجتماعية شيئاً من الاعتدال او الاختلال يقربون بهِ من المجانين بل نرى ان اذكى العقول مضاء واقفة عند حدود الجنون ولا يخلو عظيم في الناس من بعض تصورات تخص بهِ وعقائد لا تتعداهُ وعوائد لا تجدها في سواهُ . والالفة وسرعة التأثر وشدة الانفعال والرهبة وما شاكل امراض من امراض النفس تبلغ اشدها في النابغين ولكن وجودهم وراء نور ساطع من الذكاء يخفيها فتظهر في ابنائهم اوضح ظهور ولهذا نصح احد مشاهير الاطباء كل فتاة تريد الزواج ان ترفض من يتقدم اليها من ابناء النوابغ اذا كانت تطلب لاولادها صحة كاملة

واذا نظرنا في اعمال النوابغ انكشف لنا وجه آخر للشبه بينها وبين اعمال المجانين وهو احساؤها شيئاً فجائياً ترجع عنهُ مدارك العوام حاسرة إما لما فيهِ من الجرأة والاقدام او القدرة والسرعة فترى الافكار البعيدة السامية تلد باسرع ما يمكن من غير جهد ولا عناء وما قالهُ بوفوست من ان التأني طريق النبوغ غير صحيح لان جهد ما يستطيعهُ الانسان بالتأني ان يأتي عملاً متقناً معتدلاً لا يخرج عن نظام المألوف . اما النابغة فلا يعرف الاعتدال ولا يتقيد بنظام

في فكر النابغة شيء غريب خارق العادة لا يدخل تحت نظام كما في المجنون ولهذا كان النوابغ في كل عصر ومصر مرمى الهزء والاضطهاد فلم تنل اعمالهم قبولاً عند معاصريهم لان معاصريهم لم يفهموها وعلى هذا القياس دعا نابوليون فولتون مجنوناً لانهُ استنبط البخار للسفن البحرية . وانكرت جمعية العلوم الباريسية منفعة التلفون في اول امره . وحبس غليليو لانهُ قال

بدوران الارض . وستي كولومبوس صاحب احلام لانهُ قال بوجود اميركا قبل ان رآها

واتلاف التصورات الغريبة هذا يكثر عند الشعراء . ولا اريد بهم المشتغلين بالنظم من جيلنا الحاضر فان اكثرهم مقلد بل المتقدمين الذين نبغوا فيهِ وكانوا من المخترعين . ترى المجانين تحب التلاعب بالالفاظ وتكثر في الجملة الواحدة من الكلمات المتشابهة وهذا قريب من الشعر ولهُ عند العرب اسم يعرف بهِ وهو البديع

والافكار السامية شعرية او علمية تجيء اضطراراً غير مقيدة بارادة صاحبها وهذا ايضاً مما يميز النابغة عن سواهُ لان الشاعر المقلد يجد المعنى اولاً ثم يطلب كلمة للتعبير عنهُ . واما الشاعر المطبوع فكثيراً ما تعرض لهُ كلمة او قافية تنبههُ الى معنى جديد لم يكن لولا تلك القافية . وهذا ما يسمونهُ بالوحي الشعري . وكذلك المخترع فان اعظم تصوراتهِ تلد من جراء تأثير خاص يفعل في دماغهِ كما تفعل نقطة ماء ملح ببطرية كهربائية مهيأة للعمل هكذا اتصل كلفاني الى اكتشاف الكهربائية المنسوبة اليهِ بواسطة ضفدع كان قد اتى بها لمعالجة امرأتهِ وهكذا سقوط تفاحة الهم نيوتون الى اكتشاف الجاذبية

ولا ينتج مما بيناً ان الشعراء العظام والمخترعين الكبار مجانين لان الرجل العظيم وان شابه المجنون من بعض الاوجه فهو يختلف عنهُ اختلافاً عظيماً . نعم لهُ من حدة التصوُّر وغرابتهِ ما للمجنون ولكن لهُ ايضاً ما ليس لذاك من التوسُّع في النظر والاشراق في الفكر . ولهذا لا يكون عقلهُ عقيماً كعقل المجنون

والمصاب بالجنون يعيش في حالة اشبه بالحلم يلبس فكرهُ الاشياء لبساً ولا قوة لهُ على التبصر والنقد تلك المزية التي يمكن بها اصلاح الافكار الشاردة وردها الى الحقيقة فهو في حلم مستطيل لا يرى ما حولهُ ولا دافع يردهُ عن الذهاب في فضاء التخيل ولا تأثير لحقيقة الاشياء فيهِ

اما النابغة فانهُ بالرغم عن غرابة تصورهِ وشرود مخيلتهِ تؤثر الحقيقة فيهِ لان لهُ قوة اخرى فعلها يعاكس فعل الاولى وهي قوة النقد والتعقل فيستخدمها مع التصور والاختراع في وقت واحد . وهذه القوة المهيأة في دماغهِ وتمحيص ما ينتجهُ تصورهُ إن هي الاَّ حالة من ارقى حالات الذكاء بحيث ان النابغة يحوي مجموعاً واحداً من التصورات بل سلسلة عظيمة من الافكار التي تتزاحم دماً في عقلهِ الواسع فمهما شردت مخيلتهُ اصابت من حولها وازعاً وكابحاً

وليس الاختراع محظوراً على غير النوابغ ولكنهُ يكون فيهم قصير الاجل سريع الزوال فقد يمكن مثلاً لشاعر تعوَّد نظماً فصيحاً سلساً ان يسقط عليهِ في ساعة من الزمان ما يسمونهُ بالوحي الشعري فينبغ في نظم معجزة من المعجزات غير ان ذلك لا يطول فلا يلبث ان يعود الى حالتهِ

الاولى من النظم . وطالما عثرنا على مقاطيع بديعة لشعراء مختلفين ظانين بها ان سائر شعرهم يكون كذلك فلم يصب ظننا من ذلك قصيدة سقوط الاوراق للشاعر الفرنسوي ميلاتوى فهي كافية وحدها لتخليده ولكن ان قلبت ديوانهُ لا تكاد تجد فيهِ قصيدة في طبقتها ومثلهُ قصيدة الاعزازي التي مطلعها " صاح في العاشقين بالكتائه " فقد ادَّعاها على ما يقال سبعون شاعرًا وهي فريدة بين اشعارهِ والقصيدة التي مطلعها نالت على يدها ما لم تنلهُ يدي لم يفتح بمثلها على ناظمها . فالشاعر الذي ينبغ حينًا في نظمهِ لا ينبغ الاَّ في ساعة يتخذ فيها فكرهُ المجرى الذي يتخذهُ المجانين اي تأتلف في ذهنهِ تصورات غير اعتيادية لم تعرض لهُ قبلاً ولا تعرض لمن هم في طبقتهِ ووجودهُ في استعداد لمثل هذه التصورات ببعدهُ من مصاف العوام ويدنيهِ الى النوابغ

اذا عرفنا هذا اتضح لنا ان في كل من يشتغل اشتغالاً عقلية قوتين مختلفتين القوة المبدعة القائمة بائتلاف تصورات غريبة غير منتظرة والقوة الناقدة التي تصلح تلك التصورات بائتلاف تصورات اخرى مماثلة او بعبارة اقرب الى الفسيولوجيين يوجد عاملان متناقضًا من المحرك والموقف الحركة والحاصل من تنازع هذين العاملين هو نتاج الدماغ

فالمجانين يملكون العامل الاول اي المحرك واما موقف الحركة ففقود منهم فهم في تصوراتهم كالفرس الجموح لا وازع لهم يوقفهم عند حد معقول اي ليس لهم تبصر في الامور ولا نظر ثاقب ولا حكم صائب . والعامة مختصون بالعامل الثاني اي لهم خاصة النظر والنقد غير انهم لا يشعرون بتلك القوة الدافعة التي توصل الى العظائم ولهذا يظلون في طبقة منحطة اما النابغة فجامع بين القوتين حاصل على العاملين دماغهُ مقر للتعبج الجديد الموصل الى الابداع وفيهِ من صفاء الذهن واشراق الفكر ما يخفف من تهور التصور

وعمل هاتين القوتين يتم في وقت واحد والفائز منهما يرسم صورتهُ في العمل الاخير الذي ينتجهُ الدماغ . ومن درس اعمال المشاهير سواء كان في العلم او في السياسة وجد هذين العاملين على نسب مختلفة فيغلب في البعض منهم الاول بحيث يخالهم الدارس من المجانين مع اعترافهِ بعلو طبقتهم . ويغلب في البعض الآخر الثاني دون ان يمنع ذلك ظهور الغرابة فيهم

ولا يختص هذا القول بالعلوم الادبية دون العلمية لان الكيمياء والطب والطبيعيات لا يكفي لصاحبها ان يكون ذا اضطلاع وثبات واجتهاد بل يقتضي لهُ حدة في التصور والتخيلات والاَّ قضى فيها عمرهُ عالمًا مملاً عادم الطلاوة . وفي الابداع العلمي ما في الادبي من تفاوت الطبقات في الاختراع فقد يقع لعالم ما ان يشرق عقلهُ بنور النوابغ حينًا ثم يخفي ذلك الشعاع

كأن لم يكن وأصدق مثل على هذا شوان مكتشف الرأي الخلوي

ولكن في العلم كما في الادب لا يكفي الاختراع اذا لم يقرن بالصبر والتبصر فالمجانين قادرون على الاختراع ولكن لتقيدهم في افكارهم المحدودة وتيههم في بيداء احلامهم لا يبالون بالحقائق التي تحوطهم والتي يمكن ان تهذبهم فلا يرون غير تصوراتهم وان هي الا نقطة محدودة لا فكاد تلحظ وما بقي فمغلق عليهم وهكذا لا تنكشف سرائرهم للغير فيمتنع عليهم التقدم و يغلب فيهم الخطاء لان كل رأي لا تصقل بهِ الآراء المجاورة ولا تمسهُ اصابع النقد لا يسلم من الضلال

فالاختراع والتعقل متلازمان وكل من هذين العاملين اذا انفصل عن اخيهِ كان قاصرًا عن الاتيان بعمل عظيم . ان لافوازيه رجل الكيمياء الشهير كان من المقدرة على الاختراع بمكان عظيم فاتصل الى ما فات الوفًا من قبلهِ ودخل بفكرتهِ في قلب كل شيء تقريبًا فحلل الماء والاكحول وعرف الاختمار وعلل عن تكون الحرارة الحيوانية ووزن تلك الحرارة واخترع تجربة كيماوية لم تكن قبلهُ واشتغل بالاقتصاد السياسي والصناعة ولم يترك سرًّا من اسرار الكيمياء دون ان يدركهُ او يشير اليهِ عن بعد فكانت اعمالهُ اساس الكيمياء الحديثة والقاعدة التي وضع عليها ذلك البناء العظيم الناشر اليوم ظلهُ في عالم الصناعة والاختراع فلو لم يكن عندهُ من الدقة في النظر ما يقارن تصورهُ السريع البديع بحيث لا يجعلهُ ان ينقاد الى آرائهِ الخصوصية ويعمى عن غلطهِ بل يدفعهُ الى اجراء الامتحان واختبار كل ما كان يرتئيهِ وتمحيصهِ لمعرفة خطائهِ من صوابهِ لما فاز العلم بخدماتهِ والعالم بنتائجها

وباستور المحسن العظيم للانسانية مشهور بدقة نظرهِ وملاستهِ الحقيقة في كل اعمالهِ ولكن من ينكر عليهِ غرابة تصورهِ وقوة اختراعهِ فلولا هذا ما ادرك التولد الذاتي فاندفع الى درسهِ ولا استشف امكان التخفيض من سموم الجراثيم المرضية فاخذ اليهِ . والاغلب ان المرض الذي اصابهُ في رأسهِ قديمًا جعل دماغهُ سريع التهيج وربما كان السبب في ترقية قوة التصور والاختراع فيهِ ولا ريب انهُ يوجد الان مثل باستور في النظر والدقة ولكن من لنا بنظيرهِ في الابداع وقوة التصور

والمشتغل بالعلم يستفيد كثيرًا من تصوراتهِ وكلما اتسع نطاقها اتسع ذكاؤهُ ولو كاد يصل بهِ التخيل الى الهذيان بشرط ان يكون لهُ من دقة النظر وصفاء الذهن ما يُلطف هياجهُ و يُعدل حركاتهِ

ولزيادة البيان نختم هذه المقالة بمثل استمدهُ من قصة مشهورة عند الافرنج تعرف بدون كيشوت في هذا الكتاب الذي هو من ابدع ما انتجهُ الفكر البشري بما دعي من الجد في الهزل

والحقائق على الاوهام بطل يسمى دون كيشوت قرأ تواريخ الفرسان التائهة فدفعتهُ الغيرة الى التشبه بهم فغادر وطنهُ راكباً فرساً يشبههُ في الغرابة وسار في الارض فارساً تائهاً يطلب ضعيفاً يتقذهُ وباغياً يعضدهُ ومقهوراً ينصرهُ لانهُ كان ذا نفس كبيرة واميال سامية شريفة يحب العدل والاحسان والحرية وكان ينظر الى الشيء خلاف ما ينظر اليهِ سواهُ واراؤهُ اسمى من آراء غيرهِ وعندهُ من المقاصد والمبادىء ما عند المصلحين والمخترعين والنوابغ فهذا الرجل لو كان فيهِ قليل من التعقل والتبصر لاصلح الانسانية قاطبة غير انهُ لسوء الحظ مجنون واي مجنون لانهُ لم يكن يثروى ليفهم حقائق الاشياء بل كان ينقاد الى تخيلاتهِ فيظنها حقائق ويبصر كل شيء من خلال احلامهِ ويمشي في الحياة كما يمشي النائم غير اهل لان يميز بين ما يوجد وما لا وجود لهُ ولهذا كان يخيب في كل عمل اقدم عليهِ وبالرغم عن اجتهادهِ وشجاعتهِ وفروسيتهِ وبالرغم عن مقاصدهِ السامية الشريفة افضى بهِ الحال الى قضاء باقي عمرهِ في المارستان لانهُ كان مجنوناً جنوناً مطبقاً

والى جانب هذا الفارس خادمهُ سانكو بانثا راكباً حمارهُ وهو رجل مجرد عن كل تصور لا يختلف عن عامة الناس في العقائد يتكلم ويفتكر ويعمل كما يعمل الناس ويعيد بسذاجة كل ما يسمعهُ من اصحابهِ معلمهُ في السماء وهو في الحضيض لا استعداد فيهِ لان يرتفع قليلاً عما كان عليهِ اجدادهُ ولا قوة لهُ على الانحراف عن الطريق العمومية ولكنهُ كان مشهوراً بتعقلهِ واشراق فكرهِ . وكلما عرض معلمهُ رأياً اجابهُ عليهِ بتبصر واسفرت العواقب عن صدقهِ وضلال سيدهِ

فلا يكون الانسان نابغة الاَّ اذا جمع بين دون كيشوت وسانكو بانثا . الاول ليمشي الى الامام ويحيد عن الطريق المطروقة ويستقل فيعمل غير ما يعملهُ الناس واحسن مما يعملون . والثاني لان هذه الغرابة في الاطوار لا تفيد شيئاً ان لم تقترن بشيء من التبصر والحكم الصائب ومعرفة الحقائق. ولهذا السبب مرَّ كثيرون من الدارسين البارعين من امام المخترعات العظيمة والاعمال الكبيرة ولم يقربوها لانهم لم يملكوا جارة دون كيشوت ولهذا السبب عينهِ قضى كثيرون من المجانين عمرهم في الاحلام واستخدموا احلامهم في الباطل دون ان يفيدوا انفسهم او الانسانية لتعريهم عن نظر سانكو بانثا

هذا هو الفرق بين النابغة والمجنون لا ينفي ان يكون عند المجانين بعض احوال تراهم فيها من العقلاء الاذكياء انما الاغلب الوجه الآخر اي ان يكون من النوابغ بعض صفات وتصرفات لا تصدر الاَّ عن المجانين لان الجنون فنون والجنون المطبق نادر في العالم بالنسبة الى انواعهِ